ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الزعامات ومقاومة القبائل للاستعمار الفرنسي
في المغرب على عهد الحماية الفرنسية

د. عبد السلام انويكّة
أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
فاس – مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

كانت ردود الفعل التي أبانت عنها قبائل المغرب على عهد الحماية الفرنسية، بمثابة تفجير لتناقضات لصيقة بتركيبة مجتمع مغرب ما قبل الحماية. وعليه، فظواهر التمرد في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي لم تكن ترتبط فقط بضغوط استعمارية أجنبية على البلاد، بل بتناقضات داخلية حكمت العلاقة بين المركز والمحيط على امتداد فترات زمنية طويلة. وكانت سيطرة الفرنسيين على حوض إيناون بوسط المغرب وبلوغ مدينة تازة سنة ١٩١٤، قد ولد شعورًا وحماسًا كبيرًا في الجهاد عند قبائل المنطقة المناوئة لكل أشكال الأطماع الأجنبية، كما حصل في عدة جهات خلال السنوات الأولى لفرض الحماية على البلاد. وفي ضوء عوامل اجتماعية ونفسية تمكنت عدة زعامات أو قيادات محلية من كسب ثقة القبائل ودعمها بدرجات متفاوتة حسب الإمكانات والفترات. فكانت هذه الزعامات كلما أبانت عن عدم انسياقها مع تقصير السلطة في إعلان الجهاد، وعن جرأتها في تهديد قوات الاحتلال الفرنسي ومضايقة أنشطتها وتوغلاتها المجالية، كلما تقوى وزنها داخل القبائل وزادت قدرتها على إلهاب مشاعرها واستثارة نزعاتها الدفاعية. ولعل ما يثبت مكانة هذه الزعامات عند القبائل هو ما أحيطت به من تتبع استعلامي استعماري بهدف إضعافها، خاصة وأنها كانت تعتبرها آلية أساسية منشطة للعصيان (المقاومة). لدرجة أن الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب كانت ترى في هذه الزعامات داخل القبائل، خطرًا محدقًا بالأمن والاستقرار وفتيل المقاومة الأساس. وقد ظهرت هذه الرؤية الأمنية بشكل جلي مع الدعاية الألمانية في المغرب، التي استهدفت زعزعة أركان الحماية الفرنسية بالبلاد، خاصة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى وهزيمة فرنسا في معركة "الهري" الشهيرة بجبال الأطلس المتوسط سنة ١٩١٤م. كلها متغيرات داخلية ودولية قوّت من فاعلية وأدوار الزعامات السياسية ضمن قبائل منطقة تازة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٢ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ مارس ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

الفقيه التّنقيطي، الفقيه الحجامي، عبد المالك الجزائري، قبائل المغرب، قبيلة البرانس

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.12816/0055408

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد السلام انويكّة. "الزعامات ومقاومة القبائل للاستعمار الفرنسي في المغرب على عهد الحماية الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ١٤٤ – ١٥١.

مُقَدِّمَةُ

كانت ردود الفعل التي أبانت عنها قبائل المغرب على عهد الحماية الفرنسية، نتيجة ما طرأ من متغيرات على طبيعة العلاقة التي كانت تجمع بينها وبين ممثلي السلطة (المخزن). وعليه، فإن ما ظهر من انتفاضات قبلية بعدة جهات من البلاد، كان بمثابة تفجير لتناقضات لصيقة بتركيبة وواقع مجتمع مغربِ ما قبل الحماية. ومن هنا سبب عصيان عدد من القبائل وهجومها على مدن مجاورة لها، مع أهمية استحضار ما كان هناك من تفاوت تاريخي قائم على مستوى النمو والتحول بين المدن والبوادي المغربية. وعليه،

بحيث لم تكن ترتبط ظواهر التمرد في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي، بضغوط استعمارية أجنبية على البلاد فقط، إنما بتناقضات داخلية حكمت العلاقة بين المركز والمحيط على امتداد فترات زمنية طويلة.[١]

وكان إحكام السيطرة على حوض إيناون وسط المغرب وبلوغ تازة سنة ١٩١٤ من قِبل القوات الفرنسية، قد ولد شعورًا وحماسًا كبيرًا في الجهاد عند قبائل المنطقة المناوئة لكل أشكال الأطماع الأجنبية، كما حصل في عدة جهات خلال السنوات الأولى لفرض الحماية على البلاد. وفي ضوء هذه العوامل الاجتماعية والنفسية، تمكنت عدة زعامات محلية من كسب ثقة ودعم القبائل بدرجات متفاوتة حسب الإمكانات والفترات. فكانت كلما أبانت عن عدم انسياقها مع تقصير السلطة في إعلان الجهاد، وعن جرأتها في تهديد قوات الاحتلال الفرنسي ومضايقة أنشطتها وتوغلاتها المجالية، كلما تقوى وزنها داخل القبائل وزادت قدرتها على إلهاب مشاعرها واستثارة نزعاتها الدفاعية. ولعل ما يثبت مكانة هذه الزعامات عند القبائل هو ما أحيطت به من تتبع استعلامي استعماري بهدف إضعافها، خاصة وأنها كانت تعتبرها آلية أساسية منشطة للعصيان (المقاومة). لدرجة أن الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب كانت ترى في هذه الزعامات داخل القبائل، خطرًا محدقًا بالأمن والاستقرار وفتيل المقاومة الأساس.[٢]

وقد ظهرت هذه الرؤية الأمنية بشكل جلي مع الدعاية الألمانية في المغرب، التي استهدفت زعزعة أركان الحماية الفرنسية بالبلاد، خاصة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى وهزيمة فرنسا في معركة "الهري" الشهيرة بجبال الأطلس المتوسط سنة ١٩١٤م. كلها متغيرات داخلية ودولية قوَّت من فاعلية وأدوار الزعامات السياسية ضمن قبائل منطقة تازة، التي شكلت خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخ فرنسا وِجهة لأنشطة الدعاية الألمانية في المغرب، معتمدة على دور الإعلام (الجرائد) انطلاقًا من إسبانيا وطنجة، بحيث كانت منطقة الشمال بمثابة قاعدة سياسية خلفية لكل عمليات الدعاية المعادية لفرنسا. ولتحقيق أهداف هذه الاستراتيجية الألمانية المضايقة لفرنسا خارج أوربا، وطدت ألمانيا تعاونها مع المقاومة المغربية في الصحراء (الهيبة بن ماء العينين)، ومع بعض رجالات المخزن المغربي (عيسى بن عمر العبدي، وزير الخارجية في عهد المولى عبد الحفيظ، وعبد الله بن سعيد الصنهاجي عامل مدينة سلا)، ثم مع عبد المالك الجزائري في شمال تازة.[٣] وإذا كانت ألمانيا قد اعتبرت هذه الزعامات/ الزعماء وسيلة لإضعاف فرنسا وأداة لتفجير الثورات الشعبية عن طريق دعمها سياسيا وماديا. فقد اختارت التقارير الفرنسية العسكرية نعت هؤلاء، بالمنشقين والمتمردين في محاولة للتقليل من شأنهم.[٤] فماذا الزعامات في المقاومة المسلحة بقبيلة البرانس ضمن مجال حوض ايناون خلال العقود الأولى لِما سمي التهدئة في المغرب خلال فترة الحماية الفرنسية على البلاد؟

أولاً: الفقيه الشنقيطي بين روح الزعامة والدعوة للجهاد بمجال قبيلة البرانس

من الزعامات السياسية الجهادية التي تميزت بنفوذ معنوي وتواصلي عند قبائل تازة ومنها قبيلة البرانس، هناك "الفقيه الشنقيطي" الذي أسهم بأدوار أساسية في تحريض قبائل المنطقة على الانتفاض والجهاد منذ السنوات الأولى لاحتلال تازة. فقد سارعت قبائل المنطقة للجهاد واختارت منذ شهر ماي ١٩١٣م "الشنقيطي" سلطانًا لهذه العملية، حتى بعد دخول الجيش الفرنسي بإيعاز من الزاوية الدرقاوية بتازة. وقد ظلت حركته نشيطة في شمال هذه المدينة بتنسيق مع حركة عبد المالك الجزائري، الذي إلتحق بصفوف الجهاد في مارس من سنة ١٩١٥،[٥] وهي الوقائع التي تدل على الدور الجهادي النشيط للصوفية بالمنطقة.

وكانت التقارير السرية الشهرية للإقامة العامة بالمغرب نهاية سنة ١٩١٤م قد تحدثت عن صعوبة الوضعية في منطقة تازة، وعن أهمية اتخاذ الحذر بشكل مستمر مشيرة إلى أن وقع الهجمات تقوى على أطراف ونواحي تازة (القبائل). وأنه رغم جهود "الشنقيطي" الذي كان يبحث عن تنظيم حَرْكةٍ تجاه مجال قبيلة البرانس، فإن هذه القبيلة لم تظهر سوى قليلاً من الحماس في مهاجمة القوات الفرنسية خلال هذه الفترة.[٦] ففي يناير من سنة ١٩١٥ كانت تحركات "الشنقيطي" وأنشطته بالقبيلة على درجة هامة من التأثير، بفعل تزايد أتباعه من أهالي المنطقة وإقدامهم على تنظيم هجمات على عدة مراكز عسكرية. الأمر الذي خلق وضعية أمنية حرجة دفعت القوات الفرنسية لتوجيه عمليات عسكرية، قامت بها

مجموعة عسكرية متنقلة تابعة لتازة قادها المقدم (Derigion) إلى موقع سيدي أحمد زروق. ورغم ما أبدته قبيلة البرانس من مقاومة فإن عدم تكافؤ الإمكانات التقنية والبشرية، جعلها تتراجع إلى المرتفعات ليتم احتلال هذا المركز بعد قتال دام عدة ساعات.[٧]

وقد وصفت جريدة السعادة (فبراير من سنة ١٩١٥م) "الشنقيطي" بالمتمرد وبإذكائه للفتنة بين قبائل تازة فأوردت: "أما في ناحية فاس وتازة فما زال الشنقيطي يعيث فسادًا في قبيلة البرانس، ولكن كلمة هذه القبيلة لم تجتمع على المذكور ورفض عدد من أفخاذها الانحياز إليه".[٨] وكانت أنشطة الفقيه الشنقيطي قد أجبرت القوات الفرنسية على التوجه إلى شمال تازة حيث قبيلة البرانس، ومن جملة عملياتها العسكرية بالمنطقة على أثر ذلك تلك التي قادها الكولونيل "بيلوكس" الذي اعتمد فيها على أربعة كتائب، وعلى سريتين كانتا تابعتين للمجموعة المتنقلة المتمركزة بتازة موظفًا ترسانة أسلحة ثقيلة (مدافع). وكانت قصبة بني وراغل بالبرانس أول وجهة للتوغل الفرنسي، بعد مواجهة حدثت بمنطقة مكناسة السفلى كلفت الجيش الفرنسي قتيلاً واحدًا وأربعة جرحى في يوم ٢١ يناير ١٩١٥م. وقد تعقدت الوضعية أكثر حينما قصد الكولونيل "بيلوكس" في اليوم الموالي مركز سيدي أحمد زروق، بحيث كانت خسائره جسيمة بسبب الثلوج والأمطار والبرودة الشديدة.[٩] ويظهر أن المقاومة الشعبية القبلية التي انطلقت من الجبال والبوادي كانت على درجة عالية من الأهمية، لارتباطها بشعور وطني لم يكن يقتصر على جهة دون أخرى، ذلك أن البادية (القبائل) لم تكن راضية على ما آلت إليه الأوضاع مع السيطرة الأجنبية على البلاد. وعليه، فقد شكلت هذه المقاومة القبلية بهذه التلقائية أمرًا واقعًا في مواجهتها لقوات الاحتلال، متخذة من الجهاد في البوادي شعارًا لها عوض الاستسلام والقبول بالأمر الواقع.[١٠]

وكانت الاندفاعية التي ميزت مقاومة قبائل تازة ومنها البرانس، وراء بروز زعامات جهادية منها حركة الفقيه "الشنقيطي"، الذي تقوت أدواره منذ سنة ١٩١٣م أي بعد فرض الحماية على المغرب وقبل احتلال تازة، وتنصيبه ملكًا من طرف قبائل المنطقة ومنها البرانس.[١١] والشنقيطي هذا استقر بتازة بمساعدة الزاوية الدرقاوية عام ١٩١٣ وكان يُعرف كذلك بـ "الحاج محمد بن المامون"، اشتغل مدرسًا بالجامع الأعظم بهذه المدينة قبل مبايعته سلطانا في ماي من السنة نفسها بهدف تنظيم الجهاد ومقاومة الاحتلال.[١٢] وقد انتقل إلى فاس وهو في حوالي الثلاثين من عمره، حيث تم استقباله بحفاوة من قِبل علماء السلطان مولاي عبد العزيز عام ١٩٠٧م. ودرس لمدة قصيرة مادتي النحو والحديث بجامع القرويين ومدرسة العطارين، قبل أن يتوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج المناسبة التي تمكن خلالها من زيارة مدن القدس ودمشق وبيروت والإسكندرية. قبل أن يعود إلى المغرب سنة ١٩١٠م ثم إلى فاس التي قضى بها مدة قصيرة، ليرحل من جديد إلى الصحراء عبر تازة متأثرًا بسياسة مولاي عبد الحفيظ. ونزولا عند رغبة أهل هذه المدينة قبل بمهمة التدريس بها، ثم الانخراط إلى جانبهم في مقاومة الفرنسيين بعدما تم اختياره سلطانًا عليهم. وبعد سنتين من الإقامة بتازة تحول الشنقيطي بحسب ما أورته حوليات إفريقيا الفرنسية، إلى عنصر مؤطر وموجه للمقاومة عند قبيلة البرانس، فقد توجه للبحث عن مدعمين له ضد فرنسا وكان يوقع رسائله ب: "سلطان ملوية وتازة والنواحي"، ويوفر حاجياته من الأسلحة والعتاد بالاعتماد على وكيل وممثل ألماني بمدينة مليلية. وإلى حدود سنة ١٩٢٥ توجه الشنقيطي لمقاومة التوغل الإسباني ثم الفرنسي، فسقط أسيرًا أواخر هذه السنة لتسمح له السلطات الفرنسية بالإقامة من جديد في مدينة تازة.[١٣]

ثانيًا: الفقيه الحجامي بين التنسيق الجهادي وقيادة القبائل

بناءً على رسالة تم العثور عليها من قِبل قوات الكولونيل" كُورو"، بعد انهزام الفقيه الحجامي على ضفاف نهر سبو، تبين أن استراتيجية حصار مدينة فاس كانت خاضعة لتعليمات دقيقة تعلقت بكيفية تموقع القبائل المهاجمة للمدينة، وكانت القوة الممثلة لقبيلة البرانس عن تازة ضمن المجموعة التي اختير لها باب الجنود بفاس. وكان الشريف محمد بن أحمد الحجامي هذا كقائد ومنسق لعملية الجهاد، قد انطلق في عملياته بالاعتماد على قبائل ناحية تازة ومنها البرانس وعين لكل قبيلة الجهة التي ستهاجم منها العاصمة فاس. ففي ماي من سنة ١٩١٢م هاجمت القبائل المدينة من جهات معلومة، ودارت

معارك دموية تمكن خلالها هؤلاء من دخول فاس، لدرجة إقدام البعض على صعود قبة ضريح مولاي إدريس وأخذ علم من أعلامه كان يصحبه "الحجامي" معه في جميع أسفاره.[١٤]

وعليه، فإن هذه المقاومة القبلية الجماعية عشية فرض الحماية على البلاد، كانت بمثابة ثورة قروية الأصول ضد الزحف الفرنسي. وقد تشكل رد الفعل هذا من قبل مجاهدين ألهبوا الحماس الشعبي خلال هذه الفترة من تاريخ المغرب، كما الحال بالنسبة للحجامي، الذي جابه القوات الفرنسية بعزة نفس رغم تباين الإمكان القتالي.[١٥] وكان حصار العاصمة فاس من طرف قبائل الجوار بتأطير وتنظيم من الفقيه الحجامي، بمجرد إعلان توقيع عقد الحماية ١٩١٢م. لدرجة أن الجنود المغاربة العاملين مع المخزن تمكنوا من الفرار من خدمتهم والتحقوا رفقة أسلحتهم بالقبائل، وهو ما مكن من تكثيف عدد الرجال المحاصرين للعاصمة فاس والذين بلغ عددهم حوالي٢٠ ألف.[١٦]

ويذكر محمد حسن الوزاني أنه في العاشر من ماي ١٩١٤م، شنت القوات الفرنسية هجوما على قبيلة البرانس والتسول بقوة تعدادها ستة آلاف جندي، فكانت من أشد المعارك التي دارت رحاها في المغرب. وأورد "ليوطي" المقيم العام الفرنسي بالمغرب حول هذه المعارك التي دامت خمسة أشهر، أن هذه القبائل المحاربة كانت تحت قيادة "الحجامي"،[١٧] الذي برز ضمن زعامات المرحلة متزعمًا قبائل البرانس واتسول وغياتة، رغم قلة عدته وعتاده أمام قوات احتلال مدعمة بأسلحة حديثة وطيران حربي، حيث واصلت القبائل كفاحها بقيادة هذا الزعيم لحوالي عقدين من الزمن.[١٨] وإذا كانت مقاومة البرانس للاحتلال الفرنسي قد اتخذت طابعا محليا ولم تفرز شخصيات محلية، فقد أبانت عن غيرة وطنية منذ فرض الحماية من خلال انضمامها لدعوة هذا الأخير في الجهاد.[١٩]

وقد أسهمت متغيرات الحرب العالمية الأولى في إرباك تدبير الأمور الأمنية والعسكرية بالمغرب، الوضع الذي استغله قبيلة البرانس لاستنفار قبائل الجوار والالتفاف حول القيادي المحلي مولاي محمد الغازي، الذي شكل نواة مشروع جهادي اعتمادًا على أهل "وربة" وعلى القاسم المشترك الروحي والثقافي لأحمد زروق، الضريح الذي كان منطلقًا لهذه الحركة يوم ١٤ غشت ١٩١٤م. غير أن هذه المحاولة المبكرة لم تكلل بالنجاح لأسباب عدة منها الإمكانات البسيطة المعتمدة، وإخفاق تحقيق تنسيق مع الفقيه الشنقيطي من أجل خلق قيادة مشتركة. فبعد تجميع القوام القتالي القبلي محليًا والإقدام على هجمات ضد قوافل عسكرية فرنسية، تبين على إثر خسائر معتبرة أن القدرات القتالية غير متكافئة بين الطرفين، فكان انسحاب محمد الغازي للعبادة في زاوية "كركر" مما أثر على نهاية هذه التجربة الجهادية المحلية.[٢٠]

ثالثًا: عبد المالك الجزائري ومجال قبيلة البرانس

سواء قبل فرض الحماية على المغرب بعدة سنوات أو بعدها إلى غاية مقتله في نواحي مليلية عام ١٩٢٤، كان "عبد المالك الجزائري" بدور كبير في المقاومة المسلحة بمنطقة تازة، مشكلا تجربة وزعامة محلية لم تلق بعد ما هو كافٍ من البحث في حقل التاريخ العسكري الوطني. وكان هذا الزعيم قد اضطلع بأدوار هامة في فترتين متميزتين من تاريخ الحماية، الأولى منها ارتبطت بالحرب العالمية الأولى من مارس ١٩١٥ إلى نونبر ١٩١٨م والثانية من بداية ١٩٢١م إلى حدود صيف ١٩٢٤م. وقد بدأت الإدارة الفرنسية في المغرب تعمق اهتمامها بأخبار عبد المالك منذ سنة ١٩١٥ في عز الحدث العسكري الأروبي الكبير، اهتمام تقوى بسبب ما كانت تنشره وسائل الإعلام الألمانية وبعض الصحف الإيطالية والسويسرية حول ثورته في المغرب، وتَحكُّمه في عدة مدن ومناطق كما هو الأمر بالنسبة لتازة.[٢١] وعبد المالك الجزائري[٢٢] كان حاضرًا بناحية تازة زمن حركة الفقيه الزرهوني (بوحمارة)، بحيث حظي باحترام وتكريم كبيرين عند قبيلة غياتة التي كانت تتظاهر بتعاطفها معه على أنه أحد المدافعين عنها.[٢٣] وكان هذا الزعيم قد سبق له أن كان عضوًا في مجلس الشيوخ العثماني،[٢٤] تلقى إعلان الجهاد من قبل السلطان العثماني وعليه إلتحق بمنطقة تازة لتولي عملية التنسيق.[٢٥]

وفي مارس١٩١٠م اجتمعت قبائل المنطقة ومنها البرانس وقبلت بشكل نهائي مولاي عبد الكبير قائدا عسكريا لها، بعد أن تمكن من السيطرة على قصبة امسون غير بعيد عن تازة مدعمًا من طرف عبد المالك. حيث تم التمكن من إغلاق ممر تازة بالقوة أمام المحلة

المخزنية التي كان يقودها ويرأسها بوشتى البغدادي، وفي هذا الخضم كانت أنشطة عبد المالك الطامع في السلطة تسير وبشكل قوي عندما أعلنته قبائل غياتة والحياينة واتسول والبرانس سلطانا عليها في تازة.[٢٦]

وكان عبد المالك الجزائري قد رهن بعض ممتلكاته سنة ١٩١٥م، وأرسل عائلته إلى إسبانيا ثم غادر فجأة مدينة طنجة عبر قبيلة الأنجرة وبني زروال. ليصل في غشت من السنة نفسها إلى نواحي تازة، حيث استقر بجنوبها عند قبيلة غياتة على رأس قوات مسلحة تسليحًا جيدًا. ومنذ هذا التاريخ بدأ يرد هذا الاسم في وثائق وتقارير فرنسية، كأخطر الزعامات التي تواجه فرنسا بالمغرب وتهدد مشاريعها. مستفيدًا من مستوى علاقاته بالقبائل المحلية وخبرته بالمغرب وبرجال الحماية الفرنسية، واستقراره في منطقة ذات استراتيجية في منتهى الأهمية بها قبائل توجد على خط الحدود بين منطقة النفوذ الإسبانية والفرنسية.[٢٧] وحول الوضعية السياسية والعسكرية بمنطقة الحماية الفرنسية بالمغرب خلال شهر شتنبر ١٩١٥، ورد بخصوص منطقة تازة أن عبد المالك بن محي الدين هذا، لم يتمكن من توحيد فروع قبيلة غياتة تحت إمرته بسبب الاختلاف الحاصل بينها. وأنه غادر مجال القبيلة متوجها صوب قبائل ما تزال عصية على الاحتلال شمال تازة، وكله أمل في تقوية حماس الأهالي الذين أبانوا آنذاك عن عدم تجاوب مع أهدافه.[٢٨] وخلال أبريل ١٩١٥م تعقدت الأمور أكثر بالمنطقة عندما تحولت قبيلة البرانس صوب عبد المالك، الذي كان يقوم بتحريض واسع في أفق دفع الأهالي للثورة والتمرد انطلاقًا من المنطقة الإسبانية، وهي الوضعية التي زادت من اهتمام الإدارة والقوات الفرنسية بقبيلة البرانس.[٢٩]

وقد اعتبرت فرنسا "عبد المالك" خصمها الأساسي في المغرب وبالشمال تحديدًا، حيث القرب من مجال النفوذ الإسباني ومن مليلية قاعدة عملياته العسكرية مستفيدًا من دعم الألمان وتمويلهم له، حيث الصراع كان ألمانيًا فرنسيًا داخل مجال مغربي. ولم تكن ألمانيا قد فقدت أملها في قوتها ورغبتها في استرجاع مكانتها العسكرية بإفريقيا الشمالية، كما أن الانتفاضات المسلحة سواء بجنوب أو شمال المغرب كانت تتم عبر اتصالات بين عبد المالك الجزائري والمقاومة، نظرًا لما كان يقدمه من تشجيع لها ومن تأكيده على دعم ألمانيا[٣٠] التي كانت تستغل صعوبة الوضعية الداخلية في حوض ورغة والمجال الممتد من فاس حتى البرانس بشمال تازة.[٣١]

ورغم أن عبد المالك كان مجرد أداة مأجورة في يد الألمان فقد كان يصعب توجيهه،[٣٢] وعدم افتقاره للمال مكنه من القيام بعدة أنشطة سياسية لوقف رغبة مغراوة وأولاد بوريمة وكَزناية ثم قبيلة البرانس في الاستسلام للفرنسيين. مقدمًا للذين فقدوا أراضيهم الفلاحية بسبب توغل القوات الفرنسية تعويضًا بلغ ١٠٠ دورو، بل كان يُضاعف هذا التعويض تقريبًا ثلاث مرات للأعيان وللراغبين في الانضمام إليه.[٣٣] وقد اعتبرت الإقامة العامة بالمغرب أن دعم الألمان لعبد المالك في المغرب، هو بالأساس من أجل إثارة الاضطراب في المنطقة السلطانية وإحداث متاهات، لشغل قوات فرنسا عن الحرب بضرب وجودها وأمنها في المغرب. وعليه، فقد كانت تؤكد على أهمية الاتصال الذي كان جاريًا بين الألمان وهذا الثائر في شمال تازة (البرانس)، بحيث كانت المنطقة الخليفية بمثابة وجهة استراتيجية للدعاية الألمانية.[٣٤]

وكرد فعل على ما كانت تشكله هذه الأنشطة من مخاطر أمنية انطلاقًا من المنطقة الخليفية، أقدم ليوطي على تعيين الجنرال هنريس عام ١٩١٤م قائدًا عامًا لمنطقة الشمال ضمن مجال النفوذ الفرنسي، بهدف الضغط على القبائل الثائرة واحتوائها اعتمادًا على نقاط مراقبة ثابتة.[٣٥] وقد ظلت كل جهود الإدارة العسكرية الفرنسية بالمغرب في هذه الفترة، موجهة لجبهة شمال تازة التي كانت تقريبا منشقة.[٣٦] ففي سنة ١٩١٦ اجتمعت قبيلة البرانس مع أتباع عبد المالك الجزائري الذي تمكن من تنظيم هجمات خلال شهر غشت من السنة نفسها، استهدفت مركز باب مروج بعدما تمكن من استمالة قبيلة البرانس ودفعها للمقاومة. ورغم الخسائر التي تلقاها عبد المالك رفقة أتباعه من القبيلة، تمكن خلال شهر يوليوز من الهجوم على معسكر جبل الحلفة، والذي كلف القوات الفرنسية خسارة ضابط واحد وخمسة جرحى.[٣٧]

وكان قد رُوِّج عن عبد المالك كونه شريكا لأطماع ألمانيا في المغرب، وأداة لعزل فرنسا عن الجزائر بالسيطرة على ممر تازة، عبر دفع قبائل المنطقة للعصيان بفضل ما تهيأت له من إمكانيات مادية

ساعدته على ذلك. فقد توفر على كمية هامة من الأسلحة الألمانية، وعلى جهاز مهم للاستخبارات ومعسكرات محاطة بعدد من الخنادق ذات تهيئة جيدة.[٣٨] وقد أشار ليوطي إلى أن عبد المالك كان يستفيد من خدمات عدد هام من التقنيين الألمان، كانوا يوفرون له خدمات تدريب وتكوين وتنظيم، كما كانوا يسهمون في تقوية أطماعه غير الهامة إنما المتوقعة.[٣٩] وفي خطاب موجه للمقاومين من القبائل ذات العلاقة بعبد المالك، أضاف ليوطي أنه منذ عدة سنوات كانت ألمانيا ومعها تركيا تستأجر وتدفع الأجر، لمَنْ يقلق راحة الأهالي ويدفعهم للهجوم على مراكز القوات الفرنسية حتى يكونوا لوحدهم ضحايا مدفعيتها ورشاشاتها.[٤٠]

وقد سجلت الوثائق الفرنسية أخبار عبد المالك، فوصفته بالشخص الذي كان قد تحول إلى أخطر العناصر المناهضة لفرنسا بالمغرب. بحيث يقول ليوطي في أحد تقاريره الموجهة لوزير الحربية Berthou بتاريخ ٢٥ يونيو سنة ١٩٢١م، "إن كل القبائل المجاورة لورغة والتي كان البعض منها يدور في الفلك الفرنسي انضمت لعبد المالك، وأن هذا الأخير يدير المنطقة التي يسيطر عليها بعدل ونظام وبحكمة ورزانة مع حفاظه على كل التقاليد والأعراف وأنه يتمتع بنفوذ قوي كشريف أولا وكأمير له ثقافة واسعة". ويضيف حول موقف عبد المالك من فرنسا فيقول: "إن عبد المالك لا يعادي الآن الفرنسيين وهو لا يتحدث أبدًا عن الاستسلام لهم وإنما عن هدنة معهم، ويرغب في الاتفاق مع فرنسا من أجل استقلاله بالمنطقة التي يحتلها".[٤١]

وفي غشت (أغسطس) ١٩١٨م تقوت الانتفاضات في شمال تازة، وقام عبد المالك المدعم من ألمانيا بالضغط على القبائل الخاضعة. الأمر الذي دفع الإدارة العسكرية الفرنسية لتنظيم عملية استطلاعية ضد هذا الأخير، عبرت منطقة "الروف" ثم مرتفع "باب تارمست". وأحكمت السيطرة على "سوق الأحد"، قبل انتقالها إلى مرتفع "تزي تايدة" العمليات التي تمت في ظروف صعبة بمنطقة تضاريسها جبلية ومسالكها وعرة. وبعد تخريب معسكر "الكيفان" المكان الذي كان يتلقى فيه أتباع "عبد المالك" تداريبهم، مستفيدين من خبرة الألمان، أقدم الفرنسيون على بناء مركز خاص بالمراقبة بعين المكان مع مجموعة أبراج في النواحي بنفس المهام. وأمام هذا الضغط العسكري توجه عبد المالك الجزائري إلى صنهاجة، حيث أُخرج من معسكر "بوهارون" ولجأ إلى الريف، لتنتهي طموحات الألمان في المغرب بالفشل أمام فرنسا.[٤٢]

وكان "عبد المالك الجزائري" قد دخل شمال تازة الجبهة المتاخمة للريف، ومنها توجه إلى منطقة بني بوعلة بقبيلة البرانس في ربيع ١٩١٧م. وهو ما دفع القوات الفرنسية لتنظيم عملية عسكرية بقيادة العقيد Aubert في ١٣ يونيو من السنة نفسها، تعرضت لهجمات من قبل أتباع عبد المالك وتمخضت عنها خسائر شملت الطرفين.[٤٣] ونظرًا لما كان لهذه الأحداث العسكرية من تأثير على القوات الفرنسية بالمنطقة، شن الجنرال Cherrier غارة على قبيلة البرانس في ١٦ أبريل من السنة نفسها شملت الأطراف المجاورة لوادي لحضر، حيث ثم إحراق المحاصيل الزراعية للضغط على القبيلة. وبعد معارك متفرقة منذ شهر يوليوز ١٩١٧م بغرب قبيلة البرانس (بوهارون، وبني بوعلة...) ومطاردات للمقاومين البرنوسيين التابعين لعبد المالك، اختفى هذا الأخير وتم إخضاع القبيلة.[٤٤] وكانت قبائل الجبال الممتدة على الحدود مع المنطقة الخليفية، كما الشأن بالنسبة لتازة ومجال قبيلة البرانس بها، قد خاضت معارك عنيفة ضد القوات الفرنسية برز خلالها عبد المالك بالمنطقة مستغلا الصراع الفرنسي الألماني.[٤٥]

خَاتِمَةٌ

لقد كان لتجاوب قبائل المغرب ومنها قبيلة البرانس مع زعامات محلية لمقاومة الاستعمار الفرنسي بالمغرب على عهد الحماية، من قبيل الفقيه الشنقيطي والفقيه الحجامي وعبد المالك الجزائري بكيفية خاصة، أثره الواضح في إرباك الاستراتيجية العسكرية الاستعمارية الفرنسية بمنطقة حوض اينون وسط البلاد، إنْ زمنيًا بتأخير أهدافها المجالية والسياسية أو من حيث تكلفتها البشرية والمادية، هذا قبل أن تنضم القبيلة لثورة الريف الشهيرة سنة ١٩٢٥م مُسهمة في خلق وضع جديد، كاد أن يعصف بالنفوذ الفرنسي في المغرب لولا استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي بعد عمليات تنسيق استراتيجية عسكرية بين القيادتين الفرنسية والإسبانية.

الهَوامِشُ:

(١) الهراس المختار، **القبيلة والسلطة، تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب**، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي، مطبعة الرسالة، الرباط، ١٩٨٨، ص١٦٦.

(2) Daniel Rivet, Lyautey et L'Institution du Protectorat au Maroc 1912-1925, T 2 Edition l'Harmattan, Paris, 1988, p 137.

(٣) الفيلالي عبد الكريم، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، ج. ٩، ط١، مطبعة شركة ناس للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٣٦٩.

(4) Archive National de Rabat, Rapport Mensuel du Protectorat, juillet 1916, P.7.

(٥) الوارث أحمد، **التيار الصوفي ومقاومة المد الإمبريالي**، ندوة علمية، المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة– الحسيمة – تاونات، منشورات المندوبية السامية للمقاومة، ٢٠٠١، ص ٢٦٧.

(6) Rapport Mensuel d'Ensemble du Protectorat, décembre1914, pp1– 2.

(7) Voinot L. C. Sur les Traces Glorieuses des Pacificateurs du Maroc, op. cit, p 145.

(٨) دحمان محمد، **المجاهد الشيخ محمد المامون وقبائل تازة**، ندوة المقاومة المسلحة وجيش التحرير بمنطقة تازة، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠١، ص ٧٩.

(٩) Voinot L. C. op. cit, p 122.

(١٠) التمساني خلوق عبد العزيز، **جوانب من المقاومة المسلحة في شمال المغرب، ١٩١٣-١٩٢٥**، ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، أكادير ١٩٩١، منشورات المندوبية السامية للمقاومة، طبعة ثانية، ٢٠٠٨، ص١٤١.

(١١) الركّوك علال، **مراحل احتلال تازة منذ سنة ١٩١٤**، مجلة الذاكرة الوطنية، ندوة تازة حول المقاومة المسلحة، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠١، ص ١٠٣.

(١٢) البكراوي محمد، **مقاومة قبائل ناحية تازة للاحتلال الفرنسي (١٩١١-١٩١٨)**، مجلة الذاكرة الوطنية، ندوة تازة حول المقاومة المسلحة، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠١، ص ١١٨.

(13) Cagne Jacques, Un Grand Nom de la Lutte Contre La Pénétration Etrangère Au Maroc, Muhammad Al-Ma'mun, Revue Dar Alniaba, N°8, Tanger, 1985, p 30.

(١٤) العلوي زين العابدين، **المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني**، ج٢، المغرب في عهد السلطان المولى يوسف، Editions Idguel، الرباط، ٢٠٠٩ ص ١٦١.

(١٥) التمسماني عبد العزيز خلوق، **مقالات ووثائق حول تاريخ المغرب المعاصر**، منشورات سليكي إخوان، طبعة أولى، مطبعة فضالة، المحمدية ١٩٩٧، ص ٢٠-٣٠.

(16) Lugan Bernard, Histoire du Maroc des Origines à Nos Jours, Librairie Académique, Perrin, 2001, p 244.

(١٧) الوزاني محمد حسن، **مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية**، ج ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٢٤.

(١٨) اللوه العربي، **المنهال في كفاح أبطال الشمال**، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٢، ص ١٧٥.

(١٩) بوزويتة سمير، **مساهمة قبيلة البرانس في مقاومة الاستعمار الفرنسي ١٩١٢- ١٩٢٥**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة عكاظ، ٢٠٠١، ص ٩٩.

(٢٠) نفسه، ص ١٠٠.

(٢١) بناني عثمان، **عبد المالك الجزائري من خلال محفوظات فانسين، وثائق عهد الحماية رصد أولي، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي**، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٥٧، طبعة أولى، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٦، ص.٧٧- ٧٨.

(٢٢) هو أصغر أبناء الأمير عبد القادر الجزائري وفي هذا الأمر اختلاف بين الباحثين، كان ملحقًا بقصر السلطان عبد الحميد العثماني بإسطنبول، دخل المغرب سنة ١٣٢١هـ، تحول إلى وزير في حركة تمرد الفقيه الزرهوني، ثم تعاون مع المخزن المغربي بعد خلافاته معه ١٣٢٢هـ. عند اختياره للعصيان في عهد المولى عبد الحفيظ، التحق في إحدى محطاته الدعائية بقاضي البرانس شمال تازة السيد إبراهيم البرنوسي، الذي آواه وجمع عليه القبيلة، وبعد توسط لقنصل فرنسا بفاس لدى عبد الحفيظ، عين رئيسا لبوليس طنجة ونائبا لوزير الحرب، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى انقلب ضد فرنسا بعد انتقاله إلى المنطقة الخليفية. لمزيد من المعطيات يمكن الرجوع لـ: الخلوفي محمد الصغير، **انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة جديدة، ١٩٩٤.

(23) Un Correspondant de Révolution, Journal d'un Israélite de Fès, 1908-1910, p. 149.

(٢٤) الفيلالي عبد الكريم، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، مرجع سابق، ص ٤٣.

(25) Louis Barthon, La Bataille Du Maroc, Librairie Ancienne Honoré Champion, Paris, 1919, p 41.

(26) Un Correspondant de Révolution, op. cit, p 173.

(٢٧) بناني عثمان، **عبد المالك الجزائري من خلال محفوظات فانسين، وثائق عهد الحماية رصد أولي**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٥٧، طبعة أولى، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٦، ص٨٠-٨١.

(28) Bulletin Officiel, Empire Chérifien, Protectorat de la République Française au Maroc, N°153, 27 Sept. 1915, p.619.

(29)Voinot L. C. Sur les Traces Glorieuses des Pacificateurs du Maroc, Charles- Lavauzelle, Paris, 1939, p 123.

(30)Augustin Bernard, la France au Maroc, Annales de Géographie,1917, vol. 26, n°139, p. 49.

(31) Lyautey L'africain, Textes et Lettres, 1915 -1918, T2, Librairie Plon, Paris, 1954, p 18.

(32)Ibid, p 190.

(33)Rapport Mensuel du Protectorat, juillet 1918, p 4.

(34)Voinot louis colonel, Sur les Traces Glorieuses, op. cit, p154.

(35) Vial Jean, Le Maroc Héorique, Librairie Hachette, Paris, 1938, p 111.

(36)Bordeaux Henry, Le Visage du Maroc, La France et son Empire, Collection Dirigée par Madame Paule de Masclary, Editions Colbert, paris.

(37) Voinot L. C. op. cit, p 148.

(38)Reinach Joseph, La Guerre de 1914-1918, Les Commentaires de Polype, 14éme série Bibliothèque Charpentier, Paris 1918, pp 329-330.

(39)Lyautey. Paroles d'Action (1900-1926), Librairie Armond Colin, Paris 1927, p 255.

(40) Iibid, 263.

(٤١) بناني عثمان، **عبد المالك الجزائري من خلال محفوظات فانسين**، مرجع سابق، ص ٨٥.

(42)Commandant, Chef l'Escadron du Bois, 8éme Groupe d'Artillerie, Coloniale d'Afrique, Historique Sommaire, Campagne d'Afrique, 1904-1919, juil. 1919, p7.

(43)Voinot L.C.Sur les Traces Glorieuses des pacificateurs du Maroc, op. cit, p 129.

(٤٤) بوزويتة سمير، **المقاومة البرنوسية للاحتلال الفرنسي**، مجلة الذاكرة الوطنية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠١، ص ١٥٧.

(٤٥)اللوه العربي، **المنهال في كفاح أبطال الشمال**، مطابع الشويخ (دسبريس)، تطوان، ١٩٨٢، ص ١٧٦.